عقل الشرق

عقل الشرق
دراسة
أحمد ناصر
الطبعة الأولى : ٢٠١٥

دار الحلم للنشر والتوزيع
٤ شارع الأشراف - من شارع مؤسسة الزكاة - المرج - القاهرة
موبايل : ٠١١٤١٨٢٤٥٦٢
dar_el7elm@hotmail.com
المدير العام : د.إسلام فتحى

تصميم الغلاف : محمد عبد السلام (ريديش ديزاين)
إخراج داخلي : الحلم للدعاية والإعلان

رقم الإيداع : ٢٠١٤/٢١٦٣٤
رقم الترقيم الدولي : 978-977-6412-88-0

إن دار الحلم للنشر والتوزيع، غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف، ولا تعبر بالضرورة عن آراء الدار .

أحمد ناصر

عقل الشرق

(إنما يَخْشَى اللَّه مِنْ عِبَادِه العُلَمَاء)

سورة فاطر - ٢٨

ميزته موهبة صوتية فنية عذبة قبل موهبة عقلية علمية أخلاقية.. إنها الهبة التي أعطاها الله له لتكون له سندًا وقوة على احتمال الأذى والتطاول والاستهزاء، ومانعًا له من الانزلاق إلى دنيا الناس والجهال.. دنيا التراشق بالألفاظ والتلاعن والسباب والجدال بالباطل.. موهبة هاجمها الناس وهم أجهل الناس بها.. موهبة عرف قدرها وقيمتها الأعداء والخصوم، وأنكرها وسبّها الأهل والأحباب.. لقد كان هذا هو حال رجل أراد أن يسود العلم والإيمان قومه وأمته.. أراد أن يرى السعادة هي حياة الناس.. أراد أن تُرفع راية الحق وتُحمل مشاعل النور في دنيا الناس.. كأي رجل ذي رسالة على هذه الأرض.. كأي رجل يحمل رسالة الصلاح والفلاح والخير.. كأي رجل أراد أن ينتشر الحب والعدل بين الناس.

كان هذا الرجل سراج الشرق الذي حاول أن يضيء له الطريق المظلم بعقله وقلمه متصديًا لكل خطوات الشيطان التي كانت تحيق به من الداخل والخارج.. إنه لم ينسَ يومًا تعريف أمته بربها.. إنه لم يبخل يومًا أن يرسم لقومه وأمته خارطة التقدم والإصلاح والفلاح بين الأمم.. إنه لم يَهَبْ يومًا الذود عن وطنه وأمته ضد كل فاسد وعدو محتل. رجل أوتي واسع العلم واتهم بأنه يتكلم بلا علم. رجل أوتي شديد الإيمان واتهم بالشك والإلحاد.. يا له من بلاء لا يستطيعه إلا أقوياء الإيمان والصبر.

لقد كان الدكتور مصطفى محمود «عقل الـشرق» في القرن العشرين كشخصية فنية علمية إيمانية مؤثرة رضي من رضي وأبى من أبى، لأنه كان وما زال حياة الفطرة.. الفطرة التي أرادت أن تشك وتبحث وتصل وتحقق لا أن تنكر وتجحد وتلحد.. أن تعمل وتجتهد لا أن تقف وتستسلم.. إنه عالم المفكر والفيلسوف.. عالم البحث والتنقيب عن الحقائق والأسباب قبل التسليم والإيمان.

إن الوصول إلى الحقيقة وإثباتها رسالة المفكر والفيلسوف؛ لذا كان عليه أن يتحمل هو بنفسه أمانتها وعبئها ويظل باحثًا عنها، وأن يشحذ لها كل

أدواته من الفكر والاجتهاد حتى يهتدي ويصل إليها، وإن كلفه ذلك أن يضل العقل ويشك القلب ويخطئ الاجتهاد بعض الوقت. إنها ليست حالة الخروج من الحقيقة، ولكنها حالة الوصول إلى الحقيقة عن أدلة وبراهين قوية دامغة يقتنع بها العقل ويوقن بها القلب. إن الإيمان موجود ولكن البحث عن حقيقة هذا الإيمان هو الذي أراد أن يخرج بعض الوقت ويرتطم ببعض المتعصبين والجهلاء والشامتين والحاقدين.. إنها حالة كانت تحتاج إلى عقول كبيرة متفهمة حكيمة، لا إلى ألسنة طويلة معنِّفة قاذفة.. حالة كانت لا تريد إرث الإيمان عن خمول وراحة واستسلام، ولكن عن حب وعمل ومشقة واقتناع.

إن إرث الفكر والمعتقد عن راحة واستسلام ليست طبيعة رجل الفكر، فرجل الفكر «الحق» هو رجل ثورة على الأفكار والمعتقدات والأعراف، لا ليكابر ويعاند الصحيح منها ولكن ليتأكد ويقتنع ويميز، هو قبل غيره، الخبيث من الطيب منها.. إنه ظاهرة قومه في اعتقاده ولذا فهو شاكٌّ دائم البحث في الأفكار والمعتقدات.. إنك لا تستطيع أبدًا أن تقنعه ما لم يتأكد هو، أو تؤثر عليه ما لم يتيقن هو.

إن حب الدكتور مصطفى محمود للإيمان هو الذي جعله يخرج يبحث عن أسلحته ويعود إليه مسلحًا قويًا معتزًا به.. إنه أشبه بهذا الرجل الذي أحب بيتًا ورثه عن آبائه وأجداده لكنه لم يعرف شيئًا عن أساسه ومحتوياته، ولم يعجبه تنظيمه وتهذيبه فأخرجه ليعيده إليه منظمًا مهذبًا كل في مكانه مصنوعًا على عينه وبصره.. إنه أخرج كل شيء ليعيد هو بنفسه تنظيمه وتهذيبه.. خرج ليعود إليه بأجمل الدرر والتحف.. خرج ليعود إليه محصنًا بالحجج والبراهين.. خرج ضعيفًا مجردًا ضالاً حائرًا ليعود إليه قويًا مسلحًا موقنًا.. شَكَّ ليبحث ليوقن ليؤمن ليقوى.

إن الشك هو دافع البحث عن الحقيقة عن فضول واهتمام وكد.. عن أدلة وبراهين قوية يرضى بها العقل ويؤمن بها القلب.. إنه ظمأ العقل والقلب

إلى الإيمان الكامل واليقين التام.. الشك الإيجابي (الصحي) المؤقت المبني على أسس سليمة المؤدي إلى اليقين والإيمان لا المؤدي إلى الكفر والإلحاد.

إنها حالة من القلق وعدم الارتياح بما هو كائن في أذهان وأعراف الناس من معتقدات وأفكار لا يجوز المساس بها والخروج عليها ومراجعتها، ولكنها حالة من البحث وإعمال العقل فيها والوقوف على مدى الصحة من عدمها. تحري الحقيقة ضالة المفكر على أكمل وأدق وجه.. إيمان عن طريق البحث واليقين والاقتناع لا عن طريق التقليد والمحاكاة والاستسلام.. إيمان يكشف لصاحبه ما لم يُكشف لغيره.. إيمان نشط متطور في زيادة.. إيمان التفكر والتدبر والتأمل الدافع إليه الشك.. الدافع في إعمال العقل في الأشياء لفهمها وإعادة النظر فيها وصياغتها وإيجاد إجابة لكل ما يتعلق بها من دقيق مجهول وكبير معلوم.. إنه إعجاب المفكر بعقله وقدرته على فك الشفرات والطلاسم والمغامرة ومواجهة الصعاب.. عقيدة رجل الفكر على مر العصور والأزمان.. عقيدة الاستبيان قبل الإيمان.. عقيدة البحث قبل اليقين.. عقيدة التفكر والتدبر والتأمل قبل الاتباع والتقليد والمحاكاة.. عقيدة العقل الفلسفي الثائر المتمرد المحب للانطلاق والحرية.. الحرية الدافعة إلى المغامرة والتحليق في سماء الفكر والتأمل لاستكشاف كل ما هو قادر عليه وما هو عاجز عنه.. إنه لم يكن ليتعرف ويوقن قط ما لم يخض التجربة ويدخل المواجهة. إنه ما كان ليستسلم أبدًا ما لم يصطدم بالحقيقة وتصرعه. إن العقل حينما يشرد ويعود لم يكن في هذه الرحلة إلا ليتعرف على مدى قصوره وضعفه وعجزه ومحدوديته.. لم يكن إلا ليعود فيها العقل متواضعًا معترفًا بالحق والفضل.. فالشك ليس حالة مرضية سلبية في رجل الفكر ولكنه حالة صحية إيجابية؛ فبه يكون التفكير وبدء الوصول إلى قناعات تبرر الأسباب، وبالتفكير يكون الحس الناقد للأمور بعد فحص القضية المراد درسها، وهذا بدوره يؤدي إلى الرؤية السليمة لها والإجابة الصحيحة لكل ما يتعلق بها من صغير وكبير.. وقد يعمل على هذا الشك عوامل خارجية،

وتتدخل فيه أيدٍ عن جهل وغير وعي.. فمهم جدًّا لهذه الشخصية في رحلة بنائها أن ترى الصدق هو كل شيء حولها.. مهم جدًّا لهذه الشخصية في بكورتها ألا ترى هذا الانفصام بين القول والفعل.. مهم جدًّا أن تجد تلك الحكمة التي تأخذ بيديه وتحافظ عليه وتصل به إلى أرض النجاة في هذه الفترة الحالكة الصعبة.. فهي شخصية حساسة جدًّا «شفافة» لا تمر على الأمور مرور الكرام.. بل إنها تتوقف للفحص والدرس والنقد.. فقد يتسبب قول كاذب أو فعل خاطئ في شكه في كل من حوله ونقمته عليه ورفضه كل مسلماته ومعتقداته. فهو يحمل صوت الفطرة الذي لن يقبل أي خداع أو تضليل عن قصد أو غير قصد.. إنه سيصبح عدوًا لكل زائف باطل قبيح ضار ولو بعد حين، ودليل كل صادق جميل نافع حقٍ.. إنه إن ضل الطريق يومًا فلن يستمر طويلاً حتى يعود مؤنبًا نفسه نادمًا ناقمًا أشد الندم والنقمة على كل من تسبب له في ذلك أو أراد له ذلك.. فهو ليس أرضًا خصبة صالحة لهذا التملق والنفاق والرياء، إنه لن يغفر يومًا لهؤلاء الذين تسببوا له في ذلك.. إنه لن يرضى يومًا عن هؤلاء الذين أشاعوا وشهَّروا به وقت ذلك.. إنه ساخط دومًا على كل من يسيء له بذلك.. إنه لن يحب يومًا هؤلاء الذين لم يتفهموا وجهه نظرة من ذلك.. إنه عاتب دومًا على كل من ينساق وراء ذلك... إنه لن ينسى أبدًا ذلك الذي تسبب في تغيير مسار الفطرة وتسبب له في كل هذا الأذى والتطاول والاستهزاء.. فما كان له أبدًا أن يعيش هذه الحياة ويكون واحدًا بين هؤلاء مرضى القلوب والنفوس من أوطانه وغير أوطانه.. فهو صوت الحق والخير في الأرض.. هو حياة كل عزيز نبيل شريف طاهر.. هو جندي كل ضعيف ضد كل بغي وإثم وفساد وباطل.

إن أصعب وأخطر الفترات تلك الفترة التي قد تبني كل شيء بناءً عزيزًا محمودًا متكاملاً سعيدًا، أو تبنيه بناءً ملومًا مشوّهًا ناقصًا حزينًا، أو تهدمه وتقضي عليه تمامًا.. فترة ما قبل اكتمال الصورة التي يندفع فيها العقل بلا تانٍ وصبر وحكمة مغرورًا مزهوًّا بنفسه متحديًا معترضًا رافضًا كل شيء يريد

أن يعبر ويعلن عن نفسه كموهبة وقوة للناس بدأت تتفتح وتأخذ مكانها بين أصحابها بأي شكل من الأشكال.. إنها فترة قد تبني كل شيء أو تهدم كل شيء عن غير قصد ووعي.. فهي فترة غرور العقل وعدم نضجه ورؤيته الصائبة الحكيمة البعيدة للأشياء.. ما زال العقل فيها في رحلته الشاقة المتخبطة غير المستقرة إلى النضج والكمال.. ما زالت هي فترة خداع الصورة وغشاوة الرؤية الحقيقية لها التي لا ينجو منها إلا كل من صبر ووفقه الله تعالى.. إنها فترة حرجة قد لا تتحدد فيها شخصية المفكر واتجاهه بعد ذلك إطلاقًا بقدر ما تؤثر عليه وعلى تاريخه بعد ذلك.. فترة لا تحسب للمفكر بقدر ما تحسب عليه؛ وإن أتت ببعض الإيجابيات.. فترة قد يستطيع المفكر أن يبررها لكنه لا يستطيع مهما حاول أن يمحو أثرها السيئ من أذهان الناس وحياتهم بعد ذلك.. تظل أخطاء الماضي وسلبياته هي المنغص والألم الدائم في حياته بعد ذلك مهما حقق من نجاح وشهرة.. فهي فترة يفرح لها الخصوم ويتمسك بها الأعداء والجهال ومرضى القلوب، ولا يعذرها ويتفهمها إلا العقلاء والأسوياء، وقليل ما هم.. إنها ليست حالة نكران وجحود وخروج بقدر ما هي حالة بحث وتحقق ووصول.. إنها ليست حالة عناد واستكبار بقدر ما هي حالة اندفاع واستعجال برؤية غير مكتملة قصيرة.. إنها ليست فترة المساءلة والحكم على تاريخ الرجل بقدر ما هي فترة التنبؤ بظهور وبزوغ نجم هذا الرجل.. فهو حكم جائر على فترة متقلبة غير مستقرة في تاريخ الرجل لم تتحدد فيها شخصيته بعد.. إنه حكم على فترة يتوه فيها العقل ويهيم في كل واد بحثًا عن الحقيقة ومدلولاتها.. إنه قد يخرج عن كل ما هو قديم موروث، ويدخل في كل ما هو جديد موضوع بحثًا عنها، ويترك هذا الجديد الموضوع ساخطًا ناقمًا حين لا يجد منه ما يحقق له ذلك.. إنها فترة التيه والشتات التي يقطعها العقل في رحلته المليئة بالجهد والتعب والمشاق إلى شاطئ الحقيقة.. شاطئ اكتمال الصورة.. شاطئ نور البصيرة وزوال غشاوة العقل والقلب.

إن العقل حين يرسو على شاطئ الحقيقة لهو عقل الخبرة والحكمة.. عقل أولي الألباب والرشاد.. فهو عقل أصبح يرى المساوئ والمميزات.. أصبح أقدر عقل على كشف المخططات والمؤامرات.. أصبح أقدر عقل على تشخيص الحالات ووضع «روشتة» العلاج السليمة لها.. أصبح عقلاً يرى قريب الأمور وبعيدها بعين الفراسة وقلب الملهم الحكيم.. لقد أصبح عقولاً في عقل واحد.. شخوصًا في شخص واحد.. علومًا في علم واحد.. استخلاصًا لفكر من أفكار.. استخلاصًا لحياة من حيوات.. فهو قد عاش كل الاحتمالات والظنون.. إنه الآن أصبح يرى الأمور بعين المصحح والناقد البصير.. إنه الآن أصبح يستطيع التعبير عن الحقائق والأفكار بشكل سليم ودقيق جدًّا.. إنه الآن أصبح يؤتي أكله بشكل وفير غزير.. فالإيمان حين يتأكد بعد الشك لهو إيمان عميق حيوي مبصر مؤثر مثمر.. إيمان له طعم وحلاوة وسعادة.. إيمان قوي ثابت راسخ في القلوب والعقول لا يشوبه أدنى شك أو تضليل.

إن أخطاء الدكتور مصطفى محمود لم تكن قط لتهاجم ويعتدى بها على شخصه.. لم تكن قط ليُرمى بها الرجل بالكفر والإلحاد.. لم تكن قط لينسى بها فضل الرجل على وطنه وأمته.. لم تكن قط لتُخفِض وتُنزِل من ذكر الرجل كقيمة علمية إيمانية فريدة قلما يجود الزمان بمثلها.. لم تكن قط سبيلاً لفتح باب الشائعات والأباطيل على الرجل والانسياق ورائها بلا علم وتحرٍ للحقيقة والدقة فيها.. فلم يكن الدكتور مصطفى محمود هو أول الذين قطعوا هذه الرحلة الشائكة من الشك إلى الإيمان.. فقد سبقه إليها عظماء مثل أبو حامد الغزالي (حجة الإسلام) والجاحظ وغيرهما، وعلى الرغم من ذلك لم تكن هذه الرحلة لتخفض وتنزل من قيمتهما وذكرهما والاعتراف بفضلهما في أوطانهما وغير أوطانهما.. وها هم كبار صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنفسهم لم ينجوا من ماضي الشك والضلال والكفر.. فهذا سيدنا عمر بن الخطاب (فاروق الأمة) الذي عبد الأصنام وعادى الإسلام وأهله أشد العداء وأراد قتل النبي (صلى الله عليه وسلم) في جاهليته لم يكن

ليرفضه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويطعن في إيمانه وينكر قيمته وفضله على الإسلام بعد إيمانه.. بل زاده ثناءً وتعظيمًا وقال له: «لقد فرق الله بك يا عمر بين الحق والباطل»، وقال له: «لو كان بعدي نبي لكنت أنت يا عمر»، وقال له: «لو سلكت طريقًا يا عمر لسلك الشيطان غيره».. وهذا هو سيدنا خالد بن الوليد (رضي الله عنه) الذي كان له الدور البالغ في هزيمة المسلمين في «غزوة أحد» وتسبب في قتل خيرة صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لم يضع من قدره وفضله ومكانته رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعد الإيمان وزاده ثناءً ومدحًا وقال له: «إنك سيف من سيوف الله يا خالد أسله الله على المشركين»، هذا هو فعل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) معهما رغم ما كان منهما قبل إسلامهما وإيمانهما، وغيرهما كثير لم يربط رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حياة إيمانهم بفترة ضلالهم وشكهم وكفرهم، ولم يحاول هدم قيمتهم ونكران فضلهم لهذا الماضي السيئ، وكذلك أيضًا لم تكن أخطاء الدكتور مصطفى محمود لتقلل من شأنه كعالم فذ قدير في مصاف العلماء الذين يجب أن يتقدموا الصفوف ويُعترف بفضلهم وقيمتهم ويُرفع من شأنهم.. في مصاف العلماء الذين يجب أن تفرح الأمة بعودته إلى صفوفها ووقوفه بين رجالها وجنودها.. تسعد الأمة بعودة قيمة بقيمة الدكتور مصطفى محمود إلى حظيرتها وأحضانها.. تفخر الأمة بأن يمن الله عليها بهؤلاء العلماء الصالحين الذين لا يريدون علوًّا في الأرض ببغيهم وإثمهم.

إن اكتساب الأمة عالمًا صالحًا لهو خير لها من ملء الأرض ذهبًا.. فهم وقايتها ضد كل داء وشر وخطر.. هم دليلها إلى كل خير وتقدم وسعادة.. هم آثار وريح الأنبياء فيها.. هم رحمة الله بها وزينته لها. وخسارة عالم صالح واحد لهي أكبر مصيبة يمكن أن تمنى بها الأمة في تاريخ حياتها.. فلقد حجب الله عنها بابًا من العلم ورفع مجلسًا من مجالس الأنبياء فيها.

لقد فتحت في الأمة ثغرة لكل رويبضة فاسد وعدو وضال في أن يتقدم

الصفوف ويجد مكانًا فسيحًا بين الناس.. أكبر خسارة يمكن أن تزلزل بها أركان ودعائم الأمة بفقد سند وعماد من أعمدتها القوية الحصينة.. أكبر خسارة يمكن أن يفرح لها الأعداء بسقوط أكبر وأقوى حارس من حراس عقيدتها وسلاح من أسلحتها المستلة العتيدة التي تحتمي بها الناس وقت البلايا والخطر.. أكبر خسارة يمكن أن يجهز بها على الأمة وتغزى في أفكارها ومعتقداتها.. إن خسارتها لا يستطيع شيء مهما كان أن يعوض الأمة عنها.. فالأمة بغير هذه الأسلحة من حراسها مهما أوتيت هي جسد بلا رأس.. جوارح بلا قلب.. جنود بلا سلاح.. رعية بلا قائد.

إن الأمة في حاجتها إلى هؤلاء الحراس كحاجتها للطعام والشراب.. وما كان لينكر فضل هؤلاء ويتطاول عليهم إلا كل حاقد ناقص جاحد شقي ميت القلب.. كل جاهل مترف استُخلف في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل.. إلا كل من أراد أن تتساوى الرءوس في الحفر، الذين لا يحيون إلا في كل صغير وحقير ومشوه وفاسد وباطل.. أولياء الشيطان الذين تميتهم الحياة الصالحة واستنشاق الروائح الطيبة.. جانب الحياة المظلم الذي يؤلمهم ويقضي عليهم النور والحق.. الذين تبرأ منهم الرسول الكريم، الذين لا يحفظون لعالم حقًا ولا قدرًا.. بلاء العلماء الذي لا دواء له على مر العصور والأزمان.. أشواك العلماء على مر العصور والأزمان في طريقهم إلى الصلاح والخير.

إن أخطاء الدكتور مصطفى محمود كانت شأنها شأن أي مجتهد يخطئ ويصيب.. شأن أي مجتهد يثاب على الصواب ويعذر عن الخطأ.. شأنها شأن أي رجل ليس بمعصوم.. إنه ما كان يرفض أبدًا أن يناقش الاجتهاد بالحسنى والتي هي أحسن.. إنه ما كان يكابر أبدًا حقًا أو لتأخذه العزة بالإثم في باطل.

إن محاولة مهاجمة الدكتور مصطفى محمود عن قصد هي محاولة لأن يعلو صوت الباطل على صوت الحق.. محاولة لأن تنال نفوس الحقد والغل

والجهل من كل عزيز كبير. وكل من تولى كبر التشهير والإشاعة بالرجل، وكل من ينساق وراء ذلك، هذا بهتان عظيم.. هذا بهتان لا تحسبوه هينًا.. لا تحسبوا أن النَيْلَ من العلماء شيء هين، فهو عند الله عظيم أن يرى أهل شهادته وثناءه يستهان ويستهزأ بهما.. أن يرى الذين قال فيهم: «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا العِلْمِ»، أن يرى الذين قال فيهم: «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ»، أن يرى الذين قال فيهم: «يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ».. لا يعطى لهم حقًا ولا يرفع لهم قدر وشأن. إني لأستغرب لأمة تريد أن تنهض وتتقدم وهي لا تقدم علماءها.. تريد أن تُكَرِّم ويرفع الله من ذكرها وقدرها وهي تستهزئ وتحط من شأن علمائها.. تريد أن تحيا وهي تنسى علماءها.. تريد أن ترى النور وهي تغلق الباب في وجوه علمائها.. إن الله ما كان ليرفع من شأن أمة أهانت علماءها. فرطت في إرث أنبيائها. أضاعت قدر علمائها.

إن الدكتور مصطفى محمود حين عاش الإيمان ما كان ينبغي أبدًا أن يطعن في هذا الإيمان أحد.. ما كان ينبغي أبدًا أن يُشكك هذا الإيمان أحد.. ما كان ينبغي أبدًا أن يتمسك بأخطائه أحد.. ما كان ينبغي أبدًا أن تتطاير الإشاعات هنا وهناك على الرجل ظلمًا وعدوانًا وتتلقاها الناس بهذه السذاجة وتنساق وراء كل متعصب وحاقد وضال في هدم قممهم الشماء وتشكيكهم بها.. ما كان ينبغي أبدًا أن تخرج كل هذه الكتب لمهاجمة الرجل وفتح النيران عليه. فالرجل ما كان يريد إثمًا ولا ضلالاً ولا علوًّا في الأرض.. بالعكس إني لأرى أن أغلب ممن خرجوا بهذه الكتب هم الذين أرادوا ضلالاً وغواية ومنافع لهم.. ما كان ينبغي أبدًا أن يجد من هؤلاء الناس الذين أحبهم وعاش في خدمتهم كل هذا الجفاء والإنكار والغلظة.. ما كان ينبغي أبدًا أن يتطاول عليه أحد ويطعنه في علمه وموهبته.. إن الذي يريد إبعاد الدكتور مصطفى محمود عن الكلام في الدين إطلاقًا كمن يريد إبعاد النور عن السراج.. كمن يريد إيقاف العقل عن عمله وعزله عن وظيفته.. كمن يريد

الجمود والتحجر والركود للدين؛ إذ كيف ذلك وما علمه إلا ليبين للناس أمور حياتهم ودينهم؟! إذ كيف ذلك وهو واحد ممن كتبوا كتابًا ككتاب «السر الأعظم»، و«الله»، و«رأيت الله» وغيرها من الكتب التي إن دلت فإنما تدل على تغلغل الإيمان في صدر الرجل وعمق العلم به والعمل به.. كيف ذلك ومحاولة قراءته هي محاولة لأن تتعرف على الله وإنسانه وكونه وآثار رحمته.. محاولة لأن تعيش مع هذه الفطرة الإيمانية النقية التي تجد مكانًا فسيحًا محبوبًا مؤثرًا في قلوب وعقول الناس.. محاولة لأن تجد هذه البصيرة النافذة التي تدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.. محاولة لأن تعيش هذا الجو الإخلاصي في الدعوة إلى الله ومكارم الأخلاق.. محاولة لأن تجد هذا الرفق واللين والجدال بالتي هي أحسن في الإقناع والدعوة إلى الله ودين الإسلام.. محاولة لأن تجد هذه القوة الإيمانية القادرة على الإقناع ودحض الخصوم والوقوف بكل ثبات واعتزاز في وجه الأعادي والمعتدين.. محاولة لأن تجد هذه اليقظة العقلية وهذا اليقين الثابت عن التجربة، اليقين الذي يعمل على ترسيخ الإيمان ترسيخًا عميقًا لا يشوبه أدنى شك أو تضليل في قلوب وعقول الناس؟!

إن اليوم الذي تذود فيه الأمة عن علمائها لهو يوم نضجت فيه الأمة وصح فيه إيمانها.. يوم عرفت فيه الأمة دينها وإسلامها.. يوم أطاعت فيه الأمة ربها ورسولها.. وأقول لكل من أطلقوا على الرجل الإشاعات وحملوا رايات الهجوم عليه هذا إفك مبين.. هذا إفك تسبب في إحزان الرجل أشد الأحزان.. هذا إفك ترك جرحًا عميقًا لا يندمل في قلب رجل لم يحمل إلا كل حب وخير للناس.. هذا إفك على رجل عاش بسيطًا ومات بسيطًا أشد ما يكون.. هذا إفك على رجل عاش بين الفقراء كواحد منهم يرق لحالهم يحمل عنهم أعباءهم ويدخل السرور عليهم.. هذا إفك على رجل عاش محبًا لوطنه وأمته يتألم أشد الألم لفراقها وتشتتها يحاول ما استطاع لم شملها وشتاتها.. هذا إفك على رجل لم يغب يومًا عن قضايا أمته ووقف يدافع عنها في أحلك الظروف

ضد كل فاسد وعدو يتربص بها.. هذا إفك على رجل كانت أعز أمانيه أن يرى أمته جسدًا واحدًا إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.. هذا إفك على رجل عاش طويلاً يجتهد ليبين للناس ما استعصى عليهم من أمور حياتهم ودينهم.. هذا إفك على رجل كان لأمته بمثابة الناصح الأمين.. هذا إفك على رجل أضاف لأمته الكثير والكثير بين ميلاده وموته.

إنني حين أنظر في القضايا التي أثارها الدكتور مصطفى محمود في محاولته لتفسير القرآن تفسيرًا عصريًا، وأزمة «الشفاعة» أَعجب من كل هذا الهجوم والسباب والتطاول.. أعجب من كل هذا السباب والهجوم على رجل أراد اجتهادًا بالحسنى وتفكرًا وتدبرًا وإعمالاً للعقل فيما شرع الله له.. رجل أراد خيرًا لا شرًا.. رجل أراد إضافة وتبيانًا لا انتقاصًا وضلالاً.. أعجب لهذا التطاول والاتهام بأنه يتكلم فيما ليس له به علم، وأنه لا يملك العلم الكافي لأن يتكلم في القرآن!! كيف يُتهم بهذا وهو لم ينظر إلى القرآن هذه النظرة الضيقة المحدودة المتعصبة التي نظر إليه بها البعض؟! كيف ذلك وهو يرى أن القرآن منهج حياة وأنه العلم «المطلق» الذي لم يتوقف عطاؤه وتفسيره على عصر من العصور وزمن من الأزمان؟! كيف ذلك وهو يحاول تجديد فهم علوم القرآن فهمًا يواكب مستجدات عصره وتطور علومه ومعارفه ويستخرج لغته العصرية التي لم يعشها الأقدمون من المفسرين، والتي تحدث عنها البعض على سبيل الافتراض والاعتقاد، والتي ربما لم يوفق البعض في اجتهاده وتأويله إياها؟!

وحين أنظر في قضية «الشفاعة» التي علت فيها الهتافات ضده ورفعت رايات وشعارات الإنكار والسباب.. أجد هتافات وشعارات وأسماء كتب وبرامج قدمها أناس افتقروا هم أصلاً إلى روح النقاش وآداب النقد والاختلاف والتحدث مع العلماء.. أجد أناسًا بعضهم تعصبوا تعصبًا أعمى حتى يظل الدين حبيسًا عندهم ولا يسحب البساط من تحت أرجلهم وكأنها معركة يريد كل واحد منهم أن يقضي على الآخر ولم يتفهموا، أو لا يريدوا أن

يفهموا، أن الدين لا يشترط الخروج من مؤسسات بعينها حتى يُتكلم فيه، ونسوا أنه لو صح ذلك لرفضناهم أنفسهم لأنهم لم يكونوا قرشيين وتخرجوا في بيت النبوة.. أجد أناسًا ظاهرهم رحمة الدين والرشاد وباطنهم التعصب والتشدد والإساءة.. فالدكتور مصطفى محمود ما أنكر شفاعة ولا سنة على هذا الإطلاق.. هذا كلام «ساذج» جدًّا لا يقع فيه أبسط الناس حتى يقع فيه عالم كبير بحجم الدكتور مصطفى محمود؛ إذ كيف ينكرها وهو يرى أنها لا تكون بهذه الاتكالية والتواكلية التي يستتر خلفها المذنبون والكسالى عن التوبة وعمل الصالحات؟! كيف ينكرها وهو يراها لا تكون بهذه الوساطة والمحسوبية التي تعارف عليها أهل الدنيا بينهم؟! لقد أراد أن يبين لهم كيف تكون فاتهموه بإنكارها وإنكار أحاديثها.. لقد أراد لهم ألا يتواكلوا ويعملوا فاتهموه بالتضليل والقسوة.. لقد أراد لهم نصحًا وفلاحًا فاتهموه بالشر والإساءة وجعلوا من الهوى وأهوائهم حَكَمًا عليه.

إني لأعجب لهؤلاء الذين نسوا وتناسوا قدر الرجل حتى تجرأوا عليه كل هذه الجرأة وهان عليهم تشويه صورة علمائهم في بلادهم وغير بلادهم.. إني لأعجب لهؤلاء الذين يريدون هدم تاريخ الرجل الذي قدم لوطنه وأمته الكثير والكثير بهذه البساطة والسهولة.. إني لأعجب لهؤلاء الذين يدعون الخير والصلاح وهم لا يحفظون لعالِم حقًّا ولا قدرًا.

إن مجرد وضع الدكتور مصطفى محمود في قفص الاتهام لهو أقسى محنة تعرض لها الرجل في حياته.. أشد ظلمًا وقع على الرجل تسبب له في كثير من الأذى والألم بين وطنه وأمته.. أشد بلاء تعرض له الرجل طعن فيه في أعز ما يملك وما ينبغي أن يمدح ويكرّم عليه؛ علمه وإيمانه.. كبير ذنب ارتكبته الناس في حق علمائهم.. شديد ألم وحزن ضاق به صدر الرجل غفل عنه كثير من الناس.. غفلوا عن أذى إنسان عميق الحزن والألم.. غفلوا عن أذى إنسان شديد الحساسية تؤلمه أبسط الكلمات والأفعال.. غفلوا عن أذى إنسان يحزن من قلبه ويفرح من قلبه.. غفلوا عن أذى إنسان لم يعرفوه حق

المعرفة .. غفلوا عن أذى قيمة إنسانية لم يحمل للناس إلا كل حب وخير.. غفلوا عن أذى قيمة إنسانية لم يفاخر يومًا بعلمه وأعماله الخيرية.. غفلوا عن أذى قيمة إنسانية لم تتكبر يومًا أو تتعالى على أحد مهما كان.. غفلوا عن أذى قيمة إنسانية رفض غرور المنصب والجاه وفضل رسالة الحق والنور.. غفلوا عن أذى قيمة إنسانية رفض العيش في الأبراج العاجية وآثر المشي بين الناس كواحد منهم يستشعر آلامهم وأحزانهم ومشاكلهم.. غفلوا عن أذى قيمة إنسانية وقف بجانب الضعفاء والفقراء والمساكين وساعدهم وأدخل السرور عليهم.. غفلوا عن أذى قيمة إنسانية لم يتأخر يومًا عن أي مساعدة أو معونة لأحد.

فالدكتور مصطفى محمود كان قيمة إنسانية قبل أن يكون قيمة علمية.. قيمة إنسانية حافظت على مشاعر الناس، وللأسف لم يحافظ كثير من الناس على مشاعره.. راعى أحاسيس الناس ولم يراعِ كثير من الناس أحاسيسه.. جادل الناس بالحسنى والتي هي أحسن وجادله كثير من الناس بكل غلظة وقسوة وسباب وتطاول.. حافظ على كرامة الناس سرًا وعلنًا وأهانه كثير من الناس سرًا وعلنًا.. قدم الكثير للناس وتناساه الناس عمدًا وسهوًا.. أحيا للناس علومًا وأمات الناس له ذكره.. تقدم الصفوف يدافع عن الإسلام والمسلمين إذا حمي الوطيس وعاد ليجد قومه يرمونه بالكفر والإلحاد.. عاش مسلحًا قويًا بالعلم والإيمان ليجد قومه يطعنونه في علمه وإيمانه ويمنعونه من الكلام في الدين.. عاش يخدم الإسلام والمسلمين ليجد من كان يقف بجانبه يشجعه يتخلى عنه في أحلك اللحظات وأَمَسِّ الحاجة.. ظلم كبير تسبب فيه كثير من الناس عن قصد وعن غير قصد ووعي.. بلاء شديد أن يُتهم بما ليس فيه.. بلاء شديد أن يفهم على عكس ما يريد.. بلاء شديد أن يكون هو جندي من جنود الإسلام والمسلمين ويُتهم بالضلال والعداوة للإسلام والمسلمين.. بلاء شديد أن يعرف قدره الخصوم والأعداء ولا يعرف قدره أهله وأحبابه.. بلاء شديد أراده الله لعلمائه ما دامت السموات والأرض.

لم أُرِد أن أكتب هذا عن الرجل.. فالرجل أصلاً كان في غنى عن كل هذا الكلام والتبيان.. وهو ما كان يريد أن يخوض فيه أحد من الأساس تبيانًا أو دفاعًا أو هجومًا ويشغل نفسه بهذه الأشياء ويلقى لها بالاً.. فهو كان يرى أن الكلام في هذه الأمور في حد ذاته مشكلة وهو يسيء أكثر مما يحسن، وأنها من المشاكل التي قُدرت له وتمنى لو لم تكن موجودة أصلاً ورفعها الله عنه.. فهذه المعارك والاشتباكات، وإن كان قادرًا على مواجهتها وتحملها والفوز بها، كان يراها إجهادًا له ومحاولة لإخراج نفسه عن طبيعتها، طبيعة اللين والتفاهم والنقاش، إلى طبيعة التصلب والعناد والسباب، طبيعة التعصب والتشدد للرأي والجدال بالباطل، في محاولة لجره إلى معركة أقامها بعض الجماعات لإفساد عليه راحته وسعادته وتشويه صورته.. أقامها بعض الجماعات لكي يثنوه عن هدفه ورسالته.. أقامها بعض الجماعات ليهتم بتوافه الأمور وصغيرها وحقيرها ويترك كبيرها وعظيمها.. أقامها بعض الجماعات حتى يظل مجادلاً ويضيع الحق بينهما.. فالدكتور مصطفى محمود كان شخصًا غير هؤلاء الذين اتسمت حياتهم بالتشدد والتعصب والعناد والجدال بالباطل.. إنه قد يصبح عنيدًا متعصبًا (ديكتاتورًا) لا يقبل النقاش والمراجعة حين يستشعر محاولة التعالي عليه والانتقاص من قدره وقيمته وموهبته مهما جاءت به العواقب.. لكنه لم يكن أبدًا ليجادل أحدًا بالباطل أو لتأخذه العزة بالإثم عن مراجعة نفسه والاعتراف بأخطائه وزلاته.

مفترٍ كل من زج باسم هذا الرجل في أي قول أو عمل يسيء له وينال من قيمته وقدره.. مفترٍ كل من لم يعرف بحقيقة الرجل وانساق وراء الإشاعات والأباطيل ظلمًا وعدوانًا.. مفترٍ كل من لم يدفع عن العلماء قول الزور والبهتان.. مفترٍ كل من لم يقف لهؤلاء الذين يحاولون النيل من علمائهم وصالحيهم.. مفترٍ كل من شارك في هذا البلاء وكان سببًا في إيلام الرجل وإحزانه وكان عونا لهؤلاء الحاقدين والجهال والشامتين في تشويه سمعته في بلاده وغير بلاده، فالرجل كان صفحة بيضاء لكل الناس.. كان رحيمًا عطوفًا

بكل الناس.. كان صديقًا محبًا لكل الناس.. كان ودودًا متواضعًا لكل الناس.
إن برنامج «العلم والإيمان» الذي قدمه الدكتور مصطفى محمود لثماني عشرة سنة والتف حوله الملايين في داخل مصر وخارجها في حب وشعبية لَهُوَ خير دليل للرجل على الوقوف بجانب الدين والدفاع عنه.. خير دليل في الرد على الذين أرادوا تعارضًا للدين مع العلم.. خير دليل على عبقرية الرجل وسعة فهمه دينه والاعتزاز به.. خير دليل للرجل على عمق الإيمان وسعادة التحلي به.. خير دليل للرجل على أن القرآن صالح لكل الأزمان ولم يتوقف عطاؤه على عصر من العصور وزمن من الأزمان.. خير دليل على حياة الرجل التي قضاها في التدبر والتأمل في خلق السموات والأرض وما بينهما.. خير دليل على حب الرجل وطنه وأُمته والعمل على حل مشاكلها وقضاياها والوقوف في وجه الأعداء بكل شجاعة وصدق يفضح نياتهم ومخططاتهم كلفه ذلك ما كلف.. خير دليل على شجاعة الرجل على نقد الذات والاعتراف بالخطأ عمن ضعفوا أمامها وأخذتهم العزة بالإثم.. خير دليل على مدى تعب وحرص الرجل على أن يقدم للناس كل ما ينفعهم في دنياهم وأخراهم.. خير دليل على عمل صالح تركه للناس ينتفعون به ويستغفرون الله له.
إن برنامج «العلم والإيمان» برنامج يجب أن تحياه الناس.. يجب ألا يخرج من حياتهم وأذهانهم.. يجب أن يفهمه الناس.. يجب أن يفهم الناس من خلاله من هو الدكتور مصطفى محمود.. إني لأرى الناس قد فهموا الدكتور مصطفى محمود خطأً من خلال برنامج «العلم والإيمان».. لقد رأوه عالِمًا قد امتلأ قلبه وعقله بعلم الفضاء والذرة وعلم الحيوان والنبات والحشرات وغيرها من العلوم التي تثني صاحبها عن الكلام في الدين وأمور الدين، فهو ليس من شأنه واختصاصاته.. ولم يفهموا أنه لم يعش هذه الحياة إلا بهذه المرجعية الدينية وهذه العين الإيمانية التي قال الله عنها: «أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ»، لم يفهموا أنه لم يتطلع إلى هذه الأشياء إلا

بهذا البعد الديني لها.. فالدين كان هو المحرك الرئيسي لأن يتطلع إلى هذه الأشياء ويتأملها ويتدبرها.. لقد نفوا عنه أشد ما يفهم وأثبتوا له أبسط ما يملك.. فقد رأوه عالم فضاء أو حيوان أو نبات أو حشرة ولم يتفهموا حقيقته.. حقيقة رجل يجتهد ليبين لهم أمور حياتهم ودينهم وما ينبغي أن يكونوا عليه.. حقيقة رجل يتأمل ويتدبر قرآنه ليكشف عن أسرار إعجازه وعلومه التي لا تنقطع على مر العصور والأزمان.. لقد أبدلوا حسناته سيئات.

إني أرى أن برنامج «العلم والإيمان» بما كان له من إيجابيات واسعة إلا أنه قد تسبب في فهم الرجل خطأ من قِبَل عامة الناس، وحتى علماء الدين أنفسهم لم يستطيعوا من خلاله أن يستشفوا حقيقة الرجل الإيمانية، وكان بعضهم سببًا في أن يسيء عامة الناس وبسطاؤهم إلى الرجل، وأجد أيضًا أن الذي تسبب في كل هذه المشاكل للرجل هو فهم كثير من الناس الخاطئ لحقيقة الرجل التركيبية والتكوينية والتباسها عليهم.. التباس حقيقة علم الرجل الموسوعي المتنوع عليهم.. فلو أنهم استطاعوا أن يفهموا حقيقة الرجل لفضت كل هذه الإشكالات والتعقيدات والمعارك وآمن الناس واستسلموا لأفكاره وآرائه في هدوء واطمئنان، وناقشوه الرأي وجادلوه بكل أدب واحترام وبالتي هي أحسن.. إن طبيعة الرجل التكوينية المعقدة كانت سببًا كبيرًا في التباسها على الناس وفهمهم الخاطئ لها.. طبيعة العبقري.. طبيعة الفيلسوف والفنان التي قد يظهر عليها خلاف ما يظن الناس ويعتقدون.. التي تمتلك من القدرات والهبات ما لا يتوقع الناس ويفهمون.. والطبيعة التي تعيش هذه الحياة غير المألوفة الغريبة الأطوار للناس.. الطبيعة التي قد تتسبب لصاحبها في كثير من الحرج والمشاكل بين الناس.. إنه كثيرًا ما يُنتقد بما ليس فيه.. إنه كثيرًا ما يُتهم بما هو بريء منه.. إنه كثيرًا ما يُفهم على خلاف ما يكون.. مما يعرضه دائمًا إلى الإشاعات والانتقاد والأكاذيب والتهم الباطلة التي تتسبب له في كثير من الألم والحزن.. إن ما يراه هو صوابًا يراه الناس خطأ، وما يراه هو إيجابيات يراه الناس سلبيات، وما يراه

هو تميزًا يراه الناس عيوبًا.. ما يجعله أيضًا عرضة للجدال والاستهزاء والسباب والنفور وربما الاعتداء عليه ورميه بالجنون والضلال واتباع البدع.. فلقد أراد له القدر أن يعيش وحيدًا مع أفكاره ومعتقداته ضد كل ما يعيش عليه الناس.. لقد أراد له القدر أن يتحمل وحدة مسئولية وآلام الدفاع عن الحق والتمييز بين الخبيث والطيب.. لقد أراد له القدر أن يتحمل وحده هذه الأمانة الثقيلة الملقاة على عاتقه دون اعتراض أو هروب.. لقد أراد له القدر أن يتحمل وحده تبعات حمل هذه الأمانة وما سيلقاه من أعدائها وكاريهيها وجاهليها.. لقد أراد له القدر أن يتحمل وحده غربته في الدنيا وبين الناس.. لقد أراد له القدر أن يهدي السعادة إلى الناس ولا ينتزع هو إلا القليل منها.. لقد أراد له القدر أن يعيش على ما يكره ويصبر على ما يحب ويُحرم مما يستحق.. لقد أراد له القدر أن يعيش هموم الناس ويشاركهم آلامهم وأحزانهم ولا يشاركه همومه وآلامه أحد.. لقد أراد له القدر أن يعطي الكثير والكثير ولا يأخذ هو إلا القليل والقليل.. لقد أراد له القدر أن يغفر للناس خطاياهم وزلاتهم ولا يغفر أخطاءه وزلاته أحد.. لقد أراد له القدر أن تقسو عليه الدنيا وتعاديه وتسجنه في سجونها.. فالدكتور مصطفى محمود كان واحدًا ممن عادتهم الدنيا وقست عليهم وظلمتهم.. كان واحدًا ممن فهمهم الناس خطأ.. واحدًا ممن انتُقدوا بما ليس فيهم.. واحدًا ممن اتهموا بما هم براء منه.. واحدًا ممن تطاول عليهم الناس وآذوهم بغير وجه حق.. واحدًا ممن أحسنوا إلى الناس وأساء إليهم الناس.. واحدًا ممن وقفوا بجوار الناس وتخلى الناس عنهم في أحلك الظروف والمواقف.. واحدًا ممن خدموا الدين والإسلام وجفاه أهل الدين والإسلام.. واحدًا ممن فرشوا حياة الناس بالورود وألقى الناس في طريقهم الأشواك.. واحدًا ممن خرجوا من الدنيا بأقل ما يستحقون وأكثر مما لا يستحقون..

هكذا كان قدره مع الحياة وبين الناس.. هكذا كان قدره عظيم الأذى وشديد البلاء.. هكذا كان قدره ألا تكون له راحة في الدنيا.. هكذا كان قدره حياة

المشاق والمآسي والكفاح الدائم.. هكذا كان قدره من أعداء النجاح ورسالة الحق والنور.. هكذا كان قدره أن يعيش في أمة أصبحت لا تعرف لعالم حقًا ولا قدرًا.. أن يعيش في أمة عظَّمت اللهو والفسوق والعصيان على العلم والعلماء.. أن يعيش في أزمان البعد عن الدين وانفلات الأخلاق وتفشي الجهل والتنافس على الدنيا.. أن يعيش هذه الحمية والعصبية والكهنوت وإعجاب كل ذي رأي برأيه واحتكار الدين ورفع رايات التبديع والتفسيق والتكفير في وجه كل من يحاول الاقتراب منه وإعمال العقل فيه.. أن يعيش في زمن سلاطين الظلم والاستبداد والفساد والترف الذين حاربوا العلماء محاربة الأعداء لهم.. سلاطين أخرسوا ألسنة الصلاح والدين وقصفوا أقلام الحق والعدل والنور وأطلقوا ألسنة وأقلام النفاق والرياء والفساد والضلال.. سلاطين عاشوا للدنيا والخطب الرنانة الجوفاء وأكل أموال الناس بالباطل.. سلاطين كان جهل الناس والشعوب في مصلحتهم لأن يعيثوا في الأرض فسادًا ويهلكوا الحرث والنسل.. سلاطين رفعوا رايات العناد والكبر وديكتاتورية الرأي والحوار وأضاعوا حقوق ومكانه العلماء بينهم.. سلاطين قدموا الصفوف الفاسدين والمنافقين وعلماء الدنيا والمنصب الذين ارتضوا حالهم من الفساد والظلم على كلمة الحق في وجوههم.. فلقد كان الدكتور مصطفى محمود واحدًا ممن كتب لهم القدر أن يتحملوا كل هذا ويعيشوا كل هذه الظروف وهذه الأزمات وفي هذه الأجواء التي أفسدتها وغزتها أسواق «الماركسية» والشيوعية المادية الملحدة التي أقدم عليها ضعاف النفوس ومرضى القلوب من المثقفين والمفكرين والعلماء ينهلون من بضائعها ومنتجاتها بكل نهم وشراهة، وكانوا سببًا كبيرًا في إقبال كثير من الناس عليها.. أسواق وبضائع روجت لها جماعات بمكر ودهاء الشياطين حتى استطاعوا أن يجعلوا لها بريقًا جذابًا خادعًا تضل به الأنفس وتغشى به الأعين.. بريقًا ظاهره الرحمة وباطنه العذاب.. بريقًا ظاهره الإصلاح والإيمان وباطنة الفساد والكفران.. بريقًا استتر خلفه أناس امتلأت نفوسهم وقلوبهم شهوة وحسدًا وحقدًا على

كل ما هو ديني وروحي وأخلاقي، على كل من وجد مكانًا للدين في الحياة ورأى له دورًا في تقدم الأمم وإحيائها.. فوجهوا إليهم سهامهم المسمومة لتتلقاها هذه الصدور المريضة والقلوب العمياء ويشيعوا في الناس بأن على الأمم إذا أرادت تقدمًا ونهوضًا أن تتخلى عن هذا «الأفيون الشعبي» (الدين) وتتمسك بهذا المخلِّص الوحيد (العلم).

لقد جعلوا من العلم إلهًا لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وقالوا إنه قادر كل القدرة في المستقبل على الإحاطة بجميع الظواهر المادية والحية وكافٍ كل الكفاية دون الحاجة إلى قوة غيبية.

لقد كان للاكتشافات العلمية والاختراعات التي انفرط عقدها واحدة تلو الأخرى في مطلع القرن العشرين التي تسلم الغرب راية حضارتها تأثير كبير على المثقفين والأدباء والعلماء الذين بهرتهم هذه الاكتشافات والاختراعات، وراحوا ليأخذوا عن حضارة الغرب كل ما تمليه عليهم دون سؤال أو حساب أو تفكير.. فلقد كانت حضارة مادية بلا روح.. علمية بلا أخلاق.. علمانية بلا دين.. كافرة ملحدة لا تعترف بوجود إله وتدبير إله.. فلم يكن للغيب حساب عندها، وأن الكلام عنه هو ضرب من السفاهة والجنون وإضاعة الوقت فيما لا طائل منه.. عبدوا العلم من دون الله وجعلوه الوحيد القادر على حل جميع المشكلات وتدبير شئون الكون، وأن الغيب لا حساب له في الحكم العلمي، وارتفع صوت العلم في هذه الحضارة حتى صار كِبرًا وغرورًا، وأنه لا صوت يعلو فوق صوت العلم، وصاح المثقفون والعلماء بكل كبر وغرور: «من يعطينا دبابات وطائرات، ويأخذ منا العبادات والأديان»، و«إننا لم نجد في نظام السماء ضرورة للقول بتدبير إله»، فقد أعلنت هذه الحضارة الحرب على الدين وتشويه صورته ورميه بالتخلف والرجعية والتخاذل والكسل حتى أشاعوا بين الأمم والناس ذلك.. شاع أن سر تقدم الغرب هو تمسكه بالعلم وتركه الدين وسر تخلف الشرق هو تمسكه بالدين وتركه العلم، ولم يكن أمام الناس أن يتخلصوا من هذه التهم وهذا الوابل من

التشويه المتعمد المتقن تحت وطأة الاستعمار إلا أن يولوا وجوههم شطر الغرب ويأخذوا عن حضارته كل ما تمليه عليهم دون سؤال أو اعتراض، وكان أول من تقدم الصفوف هم المثقفون والمفكرون والأدباء وراحوا ينهلون من علوم الغرب ومعتقداته بكل شره ونهم ويعودون ليدسوا السم في معسول كلامهم وأفكارهم وكتبهم في بلادهم وأوطانهم.

لقد اتخذ الغرب من العلم سلاحًا خادعًا لهدم كل ما هو ديني روحي أخلاقي صالح وإقامة كل ما هو دنيوي مادي شهواني فاسد.. وكان للمثقفين الذين تأثروا بهذا البريق الكاذب الأثر البالغ في تلويث هواء بلادهم بهذه المادية الملحدة التي تسببت في مرض وموت كثير من الناس.. في كل هذه الظروف وهذه البيئة التي تلوث هواؤها وتعكر ماؤها بهذه المادية الغربية يعيش هذا الناشيء الصغير مصطفى محمود ليستنشق من هذا الهواء الملوث ويشرب من هذا الماء المُعَكَّر ويتسببا في اعتلال صحته العقائدية والإيمانية.. لقد تسببت كل هذه الظروف في اعتلال صحته العقائدية والإيمانية، ولكنها رغم ذلك لم تستطع أن تميته وتقضي عليه كما أماتت غيره الذي انسلخ منها تمامًا ووقف ليصيح بأعلى صوته مع الغرب وينكر وجود الله بكل إصرار وتكبر وجحود.. فهو رغم اعتلال صحته الإيمانية لم يكن يقنع أو يستطيع أن يستبعد القوة الإلهية المدبرة عن الكون، وإن عاش ظاهره يقول ذلك.. فإن كان ظاهره قد وقف على هذه الأرضية المادية العلمية وثبت بعض الوقت.. فإن باطنه لم يكن يستطيع أن يقف عليها ويثبت أقدامه كقوة يقينية لا يمكن زحزحتها أو اجتثاثها من فوقها.. فهذه الأرضية المادية البحتة التي أوقفه عليها غرور العلم وكبرياء العقل لم تستطع إلا أن تجعله يتصور عن الله إلا أنه هو «الطاقة الباطنة في الكون التي تنظمه من منظومات جميلة من أحياء وجمادات وأرض وسماوات».. أن يتصوره هو الحركة التي كشفها العلم في الذرة في البروتوبلازم وفي الأفلاك.. أن يتصوره هو الحيوية الخالقة الباطنة في كل شيء.

لقد كان لزهو العلم وبريقه التأثير الكبير على تصوره ورؤيته الحكيمة الرشيدة للأمر.. حين أوهمه بأنه قادر على كل شيء، وأن يتصور الله بهذه الطريقة المادية العلمية البحتة.. حين أوهمه العلم أنه كافٍ لأن يعيش الناس بلا دين.. حين أوهمه العلم أنه لا شيء فوق العقل ومنطق العقل.. حين اكتفى بظاهر العلم وآمن به كل الإيمان.. حين عاش كبرياء العقل وغرور العلم الذي اتخذته الحضارة الغربية دينًا لها.. حين أوهمه العلم أنه الأساس ولا حساب للغيب في الحكم العلمي.. فلقد كان لكل هذه الظروف الدور البالغ في أن تنحرف بمسار الفطرة لهذا الناشيء الصغير واعتلال صحته الإيمانية وغياب وطمس نور الحقيقة عنه وغياب راحة الإيمان والاطمئنان، التي تسببت له في كثير من الحيرة والقلق والألم والشك والوساوس في هذه الحضارة ودينها وأن يعيد النظر في كل أقوالها وأفعالها ويقوم بهذه الرحلة الشاقة الطويلة التي استغرقت الثلاثين عامًا من البحث في الكتب والديانات، وآلاف الليالي من الخلوة والتأمل والحوار مع النفس للوصول إلى بر الحقيقة وشاطئ اليقين والاطمئنان.

لقد بدأت هذه الرحلة حين بدأ الله يقذف في هذا القلب هذا النور وهذا الهدى ليصغي إلى صوت الفطرة وصوت الحق.. حين بدأ هذا الصوت يقتحم عليه هذه الهدأة.. هدأة الحق والجلوس مع النفس والحوار مع العقل.. حين بدأ هذا العقل يتخلى عن غروره وتنطفئ ومضة الكبرياء فيه ويشعر بعجزه.. حين بدأ يشك في هذا الإنكار وهذا التصور ويستفيق على هذا الخداع والوهم الذي كان يُدَّعى له أن بمقدوره عمل كل شيء.. حين بدأت هذه السحابة المادية تنقشع شيئًا فشيئًا من أمام القلب والعقل.. فلقد استطاع صوت الفطرة هذا أن يكون شفاءً لحالته الإيمانية والعقائدية ويأخذ به من سطوة هذه الرؤية المادية العلمية إلى نور الرؤية الإيمانية الفلسفية، ويجعله يستطيع أن يحقق هذا التوازن الناجح بين المادة والروح، ويؤلف هذا التآلف المتآخي بين العلم والإيمان. ويصل به إلى بر الحقيقة ويقف على

شاطئ اليقين والإيمان بكل قوة وثبات وراحة واطمئنان.
لقد عاد به صوت الفطرة سريعًا إلى روح الشرق ليلحق بهذا الركب المؤمن الذي غادر الغرب وحضارته المادية وعادوا إلى بلادهم وأقوامهم يفندون لهم هذه الحضارة الخادعة ويكشفون لهم عن وجهها الحقيقي القبيح الذي تستتر خلفه.. لقد عاد به صوت الفطرة سريعًا إلى قضبان الإيمان ليتقدم الصف ويدافع عنه ويقف عقبة في وجه كل من يحاول الطعن فيه أو النيل منه.. لقد عاد به صوت الفطرة سريعًا ليجتهد ويكتب للناس كل ما ينفعهم في أمور دنياهم وأخراهم، كلفه ذلك ما كلف.. لقد عاد به صوت الفطرة سريعًا ليقوم بالعمل الخيري ومساعدة الناس وإدخال السرور عليهم.. لقد عاد به صوت الفطرة سريعًا إلى بلاده ليترك الغرب وتكريمه وجوائزه التي تقاتل وتهافت عليها الناس ويصبر على الأذى والتطاول وسخرية الناس منه.. لقد عاد به صوت الفطرة سريعًا ليضاعف العمل ويُكفِّر عما اقترفت يداه من عمل وخطيئة.. لقد عاد به صوت الفطرة سريعًا لنجد هذا الحضور الإيماني والأخلاقي والروحاني والإنساني في كل ما يقدم ويكتب.
إن محاولة القرب من الدكتور مصطفى محمود والوقوف على شخصية هي محاولة لأن تجد هذه الشخصية الآسرة المتغيرة المتجددة المتميزة وتتعرف عليها وتعرفها حق المعرفة.. محاولة لأن تعود إلى طفولتك وتستمتع مع هذا الطفل البريء بلهو ولعب الأطفال في مرح وسعادة.. محاولة لأن تمتلئ بالحيوية والنشاط والخفة إلى جوار هذا الولد الشقي الثائر المتمرد.. محاولة لأن تتذوق لذة الحب وآلامه إلى جوار هذا العاشق المحب.. محاولة لأن تعيش حياة التقشف والزهد والورع والمجاهدة والمشاهدة مع هذا الصوفي العارف بالله.. محاولة لأن تأنس وتتسلى مع هذا الصاحب الممتع والصديق المخلص الوفي.. محاولة لأن تسعد وتغار على هذا الزوج الثمين، محاولة لأن تتذوق حلاوة الروح والطبع إلى جوار هذه السجايا الحلوة الممتعة.. محاولة لأن تضحك من قلبك أمام هذه الدعابة وخفة الظل العالية..

محاولة لأن تعيش الحكمة إلى جوار هذا المعلم والشيخ الكبير.. محاولة لأن ترى الدنيا بعيون بصيرة مليئة بالفرح والسعادة.. محاولة لأن تمتلك هذه القوة العقلية والفكرية والعلمية في شتى نواحي ومجالات الحياة العلمية والأدبية والفلسفية والدينية والاجتماعية والسياسية.. محاولة لأن تمتلك هذه الطاقة الروحية والقدرة التأثيرية في الناس وفيمن حولك.. محاولة لأن تطرب أذنيك وتُشجي نفسك بهذا المغرد الطروب الشادي.. محاولة لأن تعيش الهدوء والسكينة إلى جوار هذا العاقل المتزن.. محاولة لأن تعيش حياة التنزه والرحلات والفسح في البلاد والحدائق مع هذا العصفور الطائر الطليق.. محاولة لأن تعيش حياة الرقي والترفع عن توافه الأمور وصغائر الناس وتخبطهم في حياتهم ودنياهم.

لقد كانت كل هذه الهبات والقدرات سببًا رئيسيًا في أن تغلف هذه الشخصية بجاذبية وكاريزما وقوة غير عادية هائلة على التأثير في الناس وفيمن حوله شاعرين بذلك أو غير شاعرين.. فإنك لتستطيع أن ترى وتجد آثاره وتأثيره فيمن حوله في طريقة كلامهم في جلساتهم في ضحكاتهم في ابتساماتهم في طريقة مشيتهم في أخلاقهم في دعاباتهم... إلخ. إنها القدرة الكبيرة على التأثير والتشكيل وإعادة البناء التي حباه الله بها.. فأنت لا تستطيع أن تجالسه أو تقترب منه ولا تتأثر به أو يؤثر فيك سحر هذه الشخصية.

لقد كانت كل هذه الهبات والقدرات سببًا رئيسيًا في أن تجعل منه «عقل الشرق» في القرن العشرين كشخصية علمية إيمانية مؤثرة بلا خلاف أو جدال.

إن العلماء ورثة الأنبياء لا يعرف قدرهم إلا أهل الإيمان والإصلاح، ولا يحفظ لهم الفضل إلا الفقراء والمساكين والبسطاء، فهم الحزانى بصدق والذين يؤلمهم موت وفقد العلماء.. الذين لم تعرف قلوبهم النفاق والرياء والكذب.. فهم خير شهادة على تواضع العلماء وبساطتهم وعطفهم وقربهم من الناس، ولا يضع من قدر العلماء ويجحد فضلهم إلا أهل النقص والترف والضلال والإفساد.. فلا تعجب وافخر وافرح أن يتقدم صفوف موت العلماء الفقراء

والمساكين والبسطاء ويتخلف عن هذه الصفوف أهل الجاه والسلطان والمال والترف.. فالله تعالى ما أراد أن يلوث هذه المواكب الصادقة الطاهرة التي تحفها الملائكة وتتنزل عليها السكينة والرحمة بهذا الهواء الملوث بالكذب والنفاق والرياء والمظاهر الدنيوية.. لقد أراد الله أن يجعل تشريفة موت العلماء من الذين يحبهم الله ورسوله.. الذين امتلأت قلوبهم طهارة ونقاءً وصدقًا ليكونوا دليلاً على محبه الله للعلماء ووضع محبتهم في قلوب الناس.
إن موكبًا تَقَدَّمَه أهل الجاه والسلطان والمال والترف وغاب عنه الفقراء والمساكين والبسطاء لهو موكب عاش صاحبه للدنيا وأهل الدنيا ورفع الله عنه حبه ورحمته وفضله، وإن موكبًا تقدمه الفقراء والمساكين والبسطاء وغاب عنه أهل الجاه والسلطان والمال والترف لهو موكب عاش صاحبه للآخرة وأهل الآخرة وبسط الله عليه حبه ورحمته وفضله.
على هذا حسبنا الدكتور مصطفى محمود، ولا نزكي على الله أحدًا.. هو تعالى أعلم بعباده.